أصابتنا حاجـــة !

١

اشتدت قسوة الأيام ، برجل من القراء فى الـكوفة ، وضاقت به سبل الحياة ، ولم يعد يرى النور فى أية ناحيـــة من النواحى ، أو رجو من الأرجاء .

وما قيمة الإنسان يحتاج إلى المطعم والمشرب والملبس ، فلا يكاد يحصل من هذا على شىء ما .. يتطلع هنا وهناك ، فلا يجد يداً تمتد إليه ، لتعطيه ما يريد ، ولا يجد من يحنو عليه إذا احتاج إلى هذا الحنو ، أو العطف ، وإذا بطرفه يمتد ويمتد ، ثم يرتد خاسئا وهو حسير .. ! !

وما قيمة الإنسان لاتسعفه الحياة بما يريد ؟ ثم ما قيمة هذه الحيـاة إذا ضرب فى أنحائها يمنة ويسرة ، ثم لايخرج منها بشىء يقيم الأود ، ويمسك الخلة ، ويسد الحاجة . ؟ !

ثم ما قيمة الرجل تطالبه زوجته وأهله وأولاده بالطعام والشراب والـكساء .. وتنفتح أفواههم لتلتهم من طيبات الحياة ثم لاتجد ما تلوكه ، أو تعمل فيه الأنياب والأضراس ؟ !

ولهذا ضاقت بهذا القارئ من قراء الـكوفة الدنيا على رحابتها وسعتها وأظلمت فى وجهه الحياة على ضيائها الغامر ، وأنوارها الفياضة الشاملة .. ، إنه لم يعد يشعر برجولته كما يجب أن يشعر الرجل القوام على امرأته .. إن

المرأة لاتكاد تعترف بهذه القوامة إلا لمن يقوم بالإنفاق عليها فى سخاء وكرم .. أما حيث تنقبض كفه عن الإنفاق ، وتضيق ذات يده ، فلا تجد سبيلا إلى البسط، فهنا تكون الطامة حيث تضيع هيبته، و يسقط من نظر زوجته ، و بين أهله وذويه .. فكيف بالله لاتضيق به الدنيا ؟ ولا تنفسح له فيها ناحية من نواحيها ؟ . . . وكيف بالله لايشعر بالهم والغم ؟ والكرب والضيق ؟ . . .

إن شئت أن تصف تضعضع حواسه ، ففى وسعك أن تلمس هذا فى كل خلجة من خلجات وجهه ، و إن شئت أن تصف ما يعانيه من همّ ، ويكابده من غم ، ففى وسعك أن تلمس هذا فى كل عضلة من عضلات بدنه ، و إن شئت أن تدرك كيف تفعل الفاقة أفاعيلها بالرجل يغلب على أمره ، ويخرج عن جرأته وشجاعته بسبب الفقر والحاجة ، فإن هذا الرجل القارئ من قراء الكوفة أبلغ دليل على ذلك ، وأوضح صورة ، وأجلى مظهر ، يبعث فى النفوس الأسى واللوعة ، وفى القلوب الشفقة والعطف ، والحنان والرحمة .. ! !

لقد حاول أن يذهب لبعض الذين يعرفهم ليسألهم شيئا مما تفيض به أيديهم ، وتجود به نفوسهم ، ولكنه كان يأنف من هذا ، ويشعر بتخاذل واستخذاء ، وسرعان ما تتبخر هذه الفكرة من رأسه ، ويبقى فى مكانه لايريم ، و إن كانت بطنه تلذعه من حين إلى حين .

إن النفس العالية لتقاسى من أهوال الحياة ، وعنف الشدائد ، مالاتكاد تشعر به النفوس الضعيفة ، التى لاتجد معنى للتعفف والصبر

والجلد ، واحتمال المشاقّ فى سبيل حفظ ماء الوجه ، وعدم الإلحاف فى السؤال ، بل سرعان ما تتطامن للنوازل ، وتخضع للحادثات ، وتمد يدها إذا احتاجت ، فيبقى بطنها شبعان ، ولا تكاد تحس بالفاقة أو تشعر بالجوع ، وإن كانت فى الواقع قد أراقت ماء الوجه ، وأثقلت كاهل الروح ، وأوجعت الكرامة ، وطعنت العزة فى سويدائها والصميم ، ومع هذا فكأنما لم تأت أمراً إدًّا ، ولا شيئا نكرا . . !!

وطالما عانى قارئ الكوفة من عنت زوجته ، وإرهاقها الشئ الكثير ، فالمرأة لأنها بعيدة عن هذا الميدان .. ميدان السعى والعمل ، والجد والكسب ، تشعر دائما أنه لا يتطلب قوة ولا جهدا ، وتحس من صميم قلبها أن الرجل على كل شئ قدير ، وأنه إذا لم يجد ماينفقه كان هذا بسبب ضعفه وعجزه ، وإهماله وتقصيره ، ولا تلتمس له عذراً ينصفه من زمنه الغادر ، وحظه العاثر ، ودهره الخئون . . !!

٢

وقدم سعيد بن العاص الكوفة ، موفداً من قبل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، يتولى زمام الأمر هناك ، وكان رجلا عظيما ، فيه كرم وجود ، وجرأة وشجاعة ، فأحس هذا القارئ بنشوة وظفر ، نشوة لقرب الفرج ، وذهاب الضائقة التى يعانيها ، والظفر على الشدة والعسر ، فما دام صاحب الأمر فى البلد يرعى الزمام ، ويحسن الرعاية ، ويؤمن بحق الضعيف والفقير ، والمحتاج والمسكين ، قرت أعين هؤلاء جميعا ، واطمأنوا على

حقوقهم ، وأيقنوا أنهم سيجدون حاجتهم وما يكفيهم ، دون عنت ، ولا طويل إرهاق ...

وشعرت بذلك زوجة القارئ فقالت له :

— ويحك . قد بلغنا عن أميرنا هذا كرم ، أليس كذلك ؟

— بلى فإنه رجل بارّ بالفقير والمحتاج ، عطوف على المنكوبين .

— إذن فاذكر له حالك ، فلعله أن ينيلنا شيئا ...

— الصبر الصبر يا امرأة ..

— لم يبق للصبر فينا بقية ..

— وكيف ؟ ! إننا مطالبون بالصبر مادام فينا عرق ينبض بالحياة

— إنك تتحدث كأنك لاتشعر بالجوع ..

— نحن فى الهم سواء ، وما تشعرين به أشعر به ..

— إذن فما الداعى لتوانيك عن ذكر حاجتك لهذا الأمير الجديد

— ويحك ، لا تخلق وجهى ..

— اذكر له ما نحن فيه على كل حال ، تصرف كما تشاء ..

وعبثا حاول القارئ إقناع زوجته ، لتتذرع بالصبر ، وتعتصم بالجلد حتى يجد الفرصة المناسبة ، يعلن فيها للوالى حاجته ، فخضع للأمر ، واعتزم أن يطرق هذا الباب . فلا يجدر به أن يظل على حاله لاينقل قدما ، ولا يحرك ساكنا ، وهو على هذا الوضع من الضنى واللوعة والأسى والشدة .

ولكن ما هو الوقت المناسب ليلتقى بالأمير على حدة ، دون أن يجد مضايقة من أحد ، حتى يمكنه أن يعلن له حاجته ، وينبئه عما يريد ؟

يخيل إليه أن وقت الليل هو أنسب الأوقات وقد كان ...

٣

ولما كان العشاء ، أقبل الناس من كل فج وحدب ، على دار سعيد ابن العاص ، وهم فى أحوال نفسية مختلفة ، فهذا مهنئ الأمير يبغى جاهاً ومنصباً ، وهذا يظهر الولاء والوفاء ، وذاك جاء يبغى الرفد والعطاء ، ومن بين هؤلاء ذلك القارئ ، الذى انتاشته سهام الأيام ، وعصفت به عواصف الزمن ، وألقت به فى ذلك الأتون المستعر من الضنى واللوعة والشقاء .

ومدت الموائد زاخرة بما لذ وطاب ، حافلة بكل شهى ومفيد ، له فى الحلوق لذاذة ، وفى المعدات إساغة ، وفى الآناف نكهة تدفع الأيدى إلى الامتداد فى شجاعة و إقدام ، وما أكثر الأيدى وأشجعها حيث يكون الطعام ، وبخاصة الطعام العام ، فى قصور الأمراء والحكام !.

إن كل فرد يعتبر نفسه صاحب دعوة ، فما دامت المسئلة تخرج عن المحيط الفردى ، سرعان ما يحس كل إنسان أن البيت بيته ، وقصر الحاكم قصره ، لأنه ولى الأمر ، وصاحب النعمة ، والمطالب برعاية الغنى والفقير ، والعظيم والحقير ، والموسر والمعسر ، وغير المحتاج والمحتاج !! ..

وما كادت الموائد ترفع ، والبطون تمتلىء ، وأصوات التجشؤ تحتل مكانها فى جو البهو الواسع ، و يتردد صداها فى أنحاء القصر ، حتى أخذ الناس فى مغادرة المكان ، إلا أصحاب الحاجات ، الذين سرعان ما أعلنوا رغباتهم ، فكان القضاء العاجل ، أو الوعد الآجل ، الذى يرضى النفس.

إلى حين ، و يبعث فيها الأمل ، و يحيي دواعيه ، فتجد لذلك لذة ومتعة ، قد لا يحققها عاجل العطاء . ! !

و بقى شخص واحد لم يغادر المكان ، و إنما ظل جالساً بجانب سعيد ابن العاص .. ذلك هو القارئ الذى اشتدت به الحاجة ، و بلغت به الضائقة مبلغا كبيراً . .

وأدرك سعيد أن الرجل لابد وأن تكون له حاجة . فانتظر مدة حتى يخاطبه فى شأنها ، و يحادثه فى أمرها ، ولكن دون جدوى ... إذ مضى الوقت ولم يتحدث الرجل فى شيء ، بل ظل صامتا لا يتكلم ، فقال له سعيد فى أدب وعطف و إشفاق :

— أظن جلوسك لحاجة ؟ فاذكرها ..

ولكنه لم يحظ منه بجواب ، بل تخاذل واستخذى ، و بانت عليه علائم الاضطراب والارتباك ، ودلائل الخجل والحيرة ... وفهم سعيد أنه خجلان ، فأمر غلمانه أن يتنحوا عن المكان ، و يتركوا له الفرصة ليخلو بالرجل .

وخرج الغلمان ، ولم يعد فى البهو غير الرجل وسعيد . .

بيد أن الرجل لم يتكلم أيضا ، وظل صامتا ساكنا ، فقال له سعيد فى عطف كبير :

— يرحمك الله ! أنا وأنت فاذكر حاجتك !

ولم يسمع جوابا .. وظل الرجل ساكنا هادئا خجلان كما هو ، وكأنما

يقاوم عاطفة قوية جائحة ، وشعورا مهتاجا ، هو الحياء القوى ، الذى يعقل اللسان عقلا ..

ولم يجد سعيد بدا من عمل شىء ، فقام إلى المصباح ونفخه فانطفأ وساد الظلام الحالك ، ولم يعد كلا الرجلين يرى الآخر . وقال سعيد :

— يرحمك الله .. لست ترى وجهى ، فاذكر حاجتك ..

وحقا لقد وهب الظلام للرجل شجاعة وقوة ، ولم يعد حياؤه يسيطر عليه ، ويعقد لسانه ، وسرعان ماانحلت عقدة ذلك اللسان ، وقال الرجل فى صوت مضطرب خفيض :

— أصلح الله الأمير ... أصابتنا حاجة ، وأحببت ذكرها لك ..

ولم يزد .. !!

وأدرك سعيد كل شىء ، وأن هذا الرجل أولى الناس بالرعاية والفضل ، وأن حياءه قد يغلب عليه فيودى به إلى الهلاك المحقق ، والموت العاجل .. يالله ! أين هذا من أولئك الذين يسألون الناس إلحافا ، ولا يجملون فى السؤال أو الطلب ، بل لهم فى ذلك أفانين ، يعجب لها الإنسان ؟ أين هذا من الذين يطلبون ويسألون ، وربما لا يكون واحد منهم فى حاجة إلى شىء ممايطلب ؟ وليس غير الطمع والجشع ، والرغبة فى إضافة مال إلى مال ، وضم متاع إلى متاع ؟ ! . أين هذا من هؤلاء ؟ .. إن الفرق لبعيد ، وإن هذا الرجل من الذين يقول الله فيهم : « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا » .

وأشفق سعيد على الرجل ، وخشى أن يعطيه شيئا فيدركه الحياء مرة أخرى ، وربما امتنع عن أخذه ، فقال له :

— إذا أصبحت فأت فلانا وكيلى ..

٤

وطار الرجل إلى زوجته فرحا ، فلقد بدرت بوادر الفرج ، وعما قريب سينالهم من الخير ما يذهب هذه الشدة القاسية ، ويمسح ذلك الألم الذى يحز فى نفوسهم حزا ، ويثقل عليهم إلى حد كبير ..

وما كان أشد فرح زوجته حينما قص عليها زوجها كل ما حدث ، وصوّر لها كيف استولى عليه الحياء الشديد ، فعقد لسانه ، وجعله كالصنم لايبدى حراكا ، وندى العرق جبينه ، ولم يعد يفكر فى شىء أبدا ، وخيل إليه أن يفر من أمام الأمير ، ولا يذكر له شيئا .. لقد سيطر عليه شعور غريب ، كله الإيمان بالله ، وأنه من الضعف والخور ، أن يسأل مخلوقا لايملك لنفسه نفعاً ولا ضرا .. بيد أنه أقنع نفسه أخيراً ، أن هذا الأمير راع مسئول عن رعيته ، ولا مانع أبدا من أن يعلن له عن جانب من حياته التى يعتورها العسر من كل ناحية ، ويكتنفها الغموض من كل جانب ، وإنه لو لم يفعل لجنى على نفسه وعلى زوجته ، ولكان قاتلا لنفس حرم الله قتلها .. ثم إنه لايشكو ولا يتأوه ، وإنما يطلب المعونة والمساعدة ..

وما كادت تشرق الشمس ، حتى ذهب إلى وكيل الأمير ، يحدوه

الأمل ، ويدفعه الرجاء ، وكله الثقة بالله أنه سيكرمه ، ويجزل له من العطاء مايدفع عنه شبح الفاقة والفقر والاحتياج .

ولقى الوكيل ، فقال له :

— إن الأمير قد أمر لك بشيء ، فهات من يحمله معك ..

وأخذ الرجل على غرة ، فهو فقير ليس له خادم يحمل معه هبة الأمير ، فماذا يفعل ؟ .. إن الوكيل والأمير كليهما قد أحسنا به الظن .. إن واحداً منهما لايعرف حاله على حقيقتها ، ولو عرفها على حقيقتها لأشفق عليه ، ولما قال ماقال .. يجب أن أصارحه ، فمن الخير ذلك .

وقال الرجل فى صوت خفيض يجلله الحياء :

— ليس عندى من يحمل معى .

وتركه ومضى حزينا كئيبا .. إن الأمير لابد وأن يكون قد أمر لى بقوصرّة تمر .. فوا أسفاه .. لقد أضعت ماء وجهى فى سبيل قوصرة تمر .. لقد أعلنت عن نفسى أسوأ إعلان وأرذله ، وما كان يجدر بى أن أذكر حالى لأحد .. كان يجب أن أبقى سرا مكتوما لايعلم به إنسان .. ويخيل إلىّ أن هذا عقاب من الله ، لأننى اعتمدت على غيره ، وطلبت الغنى من غير بابه ، فيجب أن أتجرع الكأس حتى الثمالة ، ولا أطرق أى باب بعد الآن ..

وقص ماحدث على زوجته ، فتملكها الضيق والكرب ، لأنها كانت تنتظر هدية قيمة ، وهبة وافرة . أما قوصرة التمر هذه فلا قيمة لها .. إنها

تافهة لاتدفع عنهم شبح الفاقة والفقر ، وخير لزوجها أن يرفضها ولا يأخذها من الأمير ..

وعادت الزوجة إلى نفسها تتساءل : ومن أعلمنا أنها قوصرة تمر ؟ لم لاتكون شيئا آخر يحمل وله قيمة ؟ إن زوجى ليس له أن يقطع فى هذا الأمر دون أن يعلم الحقيقة .

وقالت الزوجة لزوجها :

— هل أخبرك الوكيل بأن هبة الأمير لك قوصرة تمر ؟

— لا . .

— إذن فمن أين لك أن تقطع بأنها كذلك ؟

— وماذا تكون غير هذا ؟

— تكون أى شىء يحمل له قيمة .

— لو كانت دراهم أو دنانير لأعطانيها يداً بيد . .

ووجدت الزوجة فى كلام زوجها ناحية من الإقناع ، وإن كانت لا تزال عند رأيها ، الذى اتخذ له مكانا فى قرارة نفسها . .

٥

ومضت أيام لم يمر بالزوجين أشد منها ، ولا أكثر كربا وضيقا ، لقد نفد صبرهما ، فلم يعد واحد منهما يحتمل أكثر مما احتمل . . لقد باتا طاويين لايجدان ما يقيم الأود ، ويسد الخلة ، ويمسك الرمق ، مما دعا الزوجة لأن تقول لزوجها فى مسكنة :

— يا هذا ، قد بلغ بنا الأمر إلى ما ترى ، ومهما أعطاك الأمير فخذه . .

— أتودين أن أذهب إليه ثانية ؟

— نعم ، وما المانع ؟ . .

— ما يتملكني من حياء أهرقت ماءه على هذه الأبواب . .

— إذن فاذهب إلى وكيله ، وخذ ما يعطيك نتقوت به أياما ، ثم يفعل الله بنا بعد ذلك ما يشاء . .

ولم يجد الرجل بداً من الذهاب ، فهو يعلم أن الحياء سيودى به إلى موت محقق ، وفناء عاجل ، وأنه الآن مغلوب على أمره ، و بهذا الشعور ، أمكنه أن يقنع نفسه ، وأن يلقى وكيل الأمير . .

وما كاد يراه الوكيل ، حتى بادره بقوله :

— أين أنت ؟

وهنا سرّى عن الرجل قليلا ، واستبشر وتفاءل وقال :

— فى بيتى لا أبرحه . .

— لقد أخبرت الأمير أن ليس لك من يحمل ما أمر به لك ، فأمرنى أن أوجه معك من يحمل ذلك . .

وفرح الرجل ، وتملكه شعور قوى بالفرج العاجل ، والخير القريب ، وما دام عبء الحمل قد زال عنه ، وأنه لن يحمل شيئا ، بل هناك من سيحمله عنه ، فقد انحلت العقدة ، ولا يعنيه بعد ذلك نوع الهدية ، أو لون

المحمول ، فهذا خير ساقه الله إليه ، يجب أن يحمده و يشكره عليه . .

وغاب الوكيل قليلا ، فوجد الرجل فرصة لكى يسترد أنفاسه اللاهثة من شدة الحياء ، وأن يشعر نفسه بشىء من الكرامة والعزة ، وأنه ليس مستجديا ولا ذليلا ، وإنما ما يعطى له من أموال المسلمين و بيت مالهم ، وهو مسلم له حق فيما يأخذه ، ويكفى أن الأمير كان يبحث عنه ، إنه لم يلحف فى السؤال أو يلح ، بل كان فى حدود الدين ، لم يتجاوزها فى أية خطوة من خطواته ، بحال من الأحوال . .

وشعر بالحياة تدب فى أوصاله ، حينما اعتقد أن كرامته لم تخدش ، وأن عزته لم تذل ، وخيل إليه أنه انتفخ انتفاخة الفرح والسرور ، وأن جلبابه يضيق به ! وأنه وهب من القوة ما لم يوهب له فى يوم من الأيام ، حتى أيام سعادته و يسره ، ورفاهيته وغناه . . ! !

وسمع حركة بجانبه ، فأخذ يعتدل فى جلسته ، خشية أن يراه أحد على هذه الصورة من الاعتداد بالنفس ، والظهور بمظهر العظمة ، وهم يعرفون ماهو عليه من فقر مدقع ، وشدة احتياج . .

٦

ونظر الرجل ، فإذا برجال من السودان يخرجون إليه ، وعلى رأس كل واحد منهم بدرة دراهم ، لا قَوْصَرةُ تمر . . يا لله . . إذن لقد أخطأ التقدير ، واستبق الحوادث ، حينما وقع فى ظنه ما وقع أولا . . وإن امرأته

لعلى صواب دون ريب ، ورأيها خير من رأيه حينما قالت له : من الجائز أن تكون الهدية أى شىء يحمل ، غير التمر . . ! !

وقال الوكيل مخاطبا هؤلاء الرجال :

— امضوا معه . .

وما كاد الرجل يبلغ بيته ، حتى فتح بدرة ، وأخرج منها دراهم ودفعها إلى هؤلاء الذين حملوا ذلك إليه ، وقال لهم فى أسلوب كله الشكر ، وعرفان الجميل :

— انصرفوا . .

— إلى أين ؟

— إلى الأمير فقد قمتم بواجبكم مشكورين . .

— نحن عبيدك . .

— عبيدى ؟ ! عبيدى ؟ !

وأخذ الرجل يردد هـذه الكلمة مذهولاً مأخوذاً ، فهؤلاء ليسوا بعبيده ، أمعنى ذلك أنهم يسخرون منه ؟ ويستهزئون به ؟ إذن فهم يعلمون حقيقة أمره ، ويرون فى هذا المال الذى حملوه إليه صدقة وإحسانا ، وأنه ممن يستحقون أخذ الصدقات ، وينالون الإحسان ؟ ! وإلا فكيف يقولون ذلك ؟ .. إنه لايمكن أن يريدوا اللفظ على حقيقته ، فليسوا بعبيده قطعاً .. إنه أعلم الناس بحاله ، وإنه لايجد شيئا يأكله هو وزجته ، فكيف بالله يفهم ما يقول هؤلاء ، وعلى أى وجه يفهمه ؟ !

وكأنما أدرك هؤلاء ما يعانيه الرجل ، فقالوا على الفور :

— إنه ما حمل مملوك لأمير هدية ، فرجع المملوك إلى مالكه . . ! !

وكانوا لايزالون أمام باب الدار ، وفتحت الزوجة لهم الباب ووصلت عبارة هؤلاء العبيد إلى أذنها ، فأخذتها نشوة غامرة ، وكادت تزغرد ، لولا أن اعتصمت بالصبر والتعقل ، حتى تعلم حقيقة الأمر . .

ورأت هذه البدر المحمولة ، ورأت هؤلاء العبيد ، الذين علمت أمرهم أول ما علمت ، ووقع نظرها على زوجها حينئذ ، ففاضت دموعها فى صمت دون أن يراهما واحد من هؤلاء . .

وكانت هـــذه الدموع أصدق دليل على شكرهما لله ، الذى فرج الكرب ، وكشف الغمة ، وأنار لهما طريق الحياة . . ! !